رحلة .. في شعر « الأخطل الصغير »

بقلم حسين مروّة

- ١ -

هي « رحلة » بالمعنى الدقيق للكلمة .. فلكي ندخل، اليوم ، هذا العالم الشعري الخاص الذي أنشأه « الاخطل الصغير » لنفسه ولجيله ، لا بد أن نستعد للامر قبل الاقدام عليه ، لاننا سندخل عالما آخر غير عالمنا المعاصر . سندخل بمقاييس للشعر تختلف ، جذريا ، عن هذه المقاييس التي نمارس بها اليوم عملية التذوق والتلقي والتواجد الفكري والروحي مع الشعر المعاصر الذي صارت علاقتنا به جزءا من علاقتنا بكل ظاهرة من ظاهرات التحول العاصف في عصرنا .

لا بد لنا ، اذن ، من اعداد أنفسنا « للتأقلم » الذوقي والفكري والوجداني في « مناخ » شعري انقطعت ، أو كادت تنقطع ، بيننا وبينه علاقات الالفة القديمة ، حتى لنخشى ـ اذا عدنا اليه الان ـ أن نستشعر الغربة معه ، وأن يستدرجنا الشعور « بالاغتراب » الى التورط بأحكام جائرة بعيدة عن الموضوعية ..

غير ان « الاخطل الصغير » سيعيننا على هذا « التأقلم » دون عناء كبير ، فان عالمه الشعري من الشفافية والطرافة وصفاء الجو بحيث سنجد ، في رحلتنا اليه ، اننا لسنا بعيدين جدا عن تخوم عالمنا المعاصر . بل سنجد ـ الى ذلك ـ ان هاجسا روحيا خفيا يتنبه فينا ، فجأة ، منذ أول اطلالة على دنياه ، فاذا بنا نحس في داخلنا أصداء هذا الهاجس توحي الينا اننا ندخل دنيا لنا فيها نبضات وجدان ، ونبرات غضب ، ومشاعر آلام ومسرات ، ولنا عندها أشياء من حياتنا وأشواقنا وتطلعاتنا لا تزال طريئة خضراء ، لانها متصلة بجذور أشيائنا الحاضرة .

صحيح ان جيل « الاخطل الصغير » قد انتهى منذ أكثر من ربع قرن ، وان الجيل الذي يعاني الان حياة العصر ، بكل قلقها وعنفها وبكل حدة الصراع بين متناقضاتها وبكل حيوية هذا الصراع ، قد أنشأ لنفسه مناخات شعرية جديدة شديدة التعقد والتوتر والتفجر ، ولكن « الاخطل الصغير » ذاته بقي في نهاية جيله يقف على تخوم جيلين ، فلم يفرق هناك في قاع الزمنية الكلاسيكية ، ولم يغترب هنا كل الاغتراب عن ارهاصات التحول والتفجر المعاصرين ، وان لم يدرك ما انكشفت عنه هذه الارهاصات من جديد ، وما كان له أن يدركه بعد أن استنفد العمر طاقاته .

فنحن ، اذن ، في هذه الرحلة الى عالمه الشعري ، لن نعاني وحشة الاغتراب كثيرا ، وان كنا ـ على كل حال ـ سنشعر بأننا معه في جيل ليس هو بالجيل الذي يحمل همومنا أو يستوعب الاطر التعبيرية القادرة على تحمل هذه الهموم .

- ٢ -

ونبدأ « الرحلة » الآن من نقطة الانطلاق الاولى في شاعرية « الاخطل الصغير » . نبدأ من قضية **الشعر** :

نريد ، أولا ، أن نتعرف الشعر كما يتصوره بشاره عبد الله الخوري نفسه .. فكيف يتصوره ؟ ما أبعاده وحدوده في رقعة الحياة ؟.. ما دوره في ديالكتيك الحياة ؟..

نستطيع أن نعرف هذا كله في كثير من شعره ، ولكن له « صلاة » يضرع فيها الى ربة الشعر ، ضراعة المؤمن المفعم قلبه صدقا واخلاصا ، أن تلهمه الشعر الذي يريد .. في هذه « الصلاة » الخاشعة نعرف كيف يريد الشعر لنفسه ، أي كيف يتصور الشعر في أعلى مستوياته وفي أكمل صوره :

ألهميني ، يا ربة الشعر ، شعرا
كالنور والنار
كالهواء ، كالاطيار ، كالفكر حرا
يلفح الادهار

كالاهازيج في الوغى تترجّع
ان ثائر ثار
كدوي الامواج اذ تتدفّع
بعيدة الاغوار
ربّة الشعر ، ألهميني قصيدا
ترجّع الاطيار
ألهميني شعرا طليقا جديدا
يوزّع الانوار

هكذا الشعر في صورته الكاملة عند « الاخطل الصغير » ، بل صورته المثلى . والمسألة هنا ليست ان الشاعر صادق في « صلاته » هذه أو غير صادق .. حتى افتراض عدم الصدق هنا يؤكد ان الصورة بحدودها كلها قائمة في ذهنه ، تكشف عن مكانها الخفي في طموحه .. ولكن طبيعة « الاخطل الصغير » نفسها تفترض صدق هذه الضراعة في « صلاته » . فهو ينطوي على ثورة في أعماقه نعرفها منه في سيرته وفي شعره معا . وقد تميز بهذه الوحدة بين سيرته وشعره دون ازدواجية ولا تعقد . من هذه الثورة ، الهادئة الوديعة أكثر الاحيان ، المتفجرة بعض الاحيان ، استوحى «صلاته» الى ربة الشعر : فهو يريد الشعر نارا تلفح الادهار ، يريده طلقا كالهواء والاطيار ، حرا كالفكر ، ثائرا كالاهازيج في معركة الثائرين ، بعيد الاغوار تدوي الامواج المتدفعة في نواحيه .. يريد الشعر جديدا طليقا يرفض الركود والقيود .. يريده لا يكتفي بأن يضيء ذاته ، فليكن نورا يوزع الانوار ليضيء الآخرين ، ليضيء الحياة تشمل الآخرين .

ليس الشعر عنده وسيلة ترف فني وحسب :

وهل الشعر غير ما امتلك
النفس ، فحلّى كأسا وحل وثاقا ؟

الشعر أن يمتلك النفس : للامتلاك هنا محتواه الوجداني الضاربة جذوره الى أعماق النفس ، فهو يعني صدق التجربة واستيعابها المشاعر كلها حتى الامتلاك .. وبعد هذا ، على الشعر أن يمنح الانسان حلاوة الحياة والبهجة الروحية ، وأن يحرره كذلك ، أن يحل وثاقه ، كل وثاق يستعبد أو يقيد طاقاته أو يعيق نموه وتطوره وانطلاقه ، فردا ومجتمعا .. بهذا المفهوم للشعر امتدح « الاخطل الصغير » حافظ ابراهيم ، شاعر النيل ، وهو يرثيه :

ما نسينا لك القصائد حمرا
قطّع الشرق دونها الاطواقا
ففسلت الجراح بالسلسل العذب
وصيرت كل خلف وفاقا ..

للشعر ، اذن ، وظيفة تتجاوز الامتاع الفني المحض ، لتجمع الى الامتاع هذا قوة الفعل في حركة التطور والتحرر الاجتماعيين .. ليس الشعر تلقيا وانفعالا وحسب ، فهو — كذلك — فاعل ومحرك ومحرر .. وكيف يكون الشعر هكذا : محركا ، ومحررا ، اذا لم يكن هو نفسه — أي الشعر — متحركا ، ومتحررا ؟.. من هنا كان شعر « الاخطل الصغير » زاخرا بالحركة وديناميّة التحرر .. واذا لم يخرج في حركته وتحرره على الشعر العمودي ، شعر البيت الكامل المقفى ، فقد تصرف كثيرا بقواعده هذه « العمودية » تصرفا له طابع الجدة والاستقلال . وهذا نموذج من تصرفه :

يا مجد ، يا فن ، يا جنون ،
لم تبق مني الليالي ،
سوى خيال خيالي .
لا النحل يرشف شهدي ،
ولا الفراش ،
وكان جيدي وخدي
لها فراش ..
أبعد ما كان نهدي
يروي العطاش ،
أصبحت ،
أصبحت وحدي .
يا مجد
يا فن
يا جنون
أين الهوى
والفتون
والعصبة المعجبون ...

على ان طبيعة الحركة والتحرر في شعره لا تقتصر على البنائية الخارجية . فقد تركت آثارها ، كذلك ، على البناء الداخلي في معظم هذا الشعر ، حتى شعر الطرب الغنائي الصرف منه . فنحن نجد دينامية الحركة والتحرر في محاولات بشارة الخوري خلق الابعاد الوجدانية لشعر الغزل والحب ، وتجاوز الصور النفسية والصيغ الشعرية المألوفة عند شعراء جيله في هذا الباب .. فهو ، مثلا ، مفتتن بالجمال وبطرب الشراب ، كما يفتتن غيره من الشعراء ، ولكن كيف تتميز عنده صورة هذا الافتتان ، وكيف يمتلك الافتتان نفسه ، وكيف يتحرك في وجدانه :

فتن الجمال وثورة الاقداح
صبغت أساطير الهوى بجراحي

في هذه الحركة الشعرية تنبع أكثر من صورة أسطورية ملونة بدم الجراح ، ولكنه اللون غير المأساوي ، بل هو يضفي على الجراح نفسها لون الفتنة والبهجة بلمسات بسيطة وسريعة وغزيرة الايحاء .. وكثيرا ما نستشف ، خلال موجة الصفاء الشفاف ، امتزاج حب الحياة وحب الجمال معا في حركة وجدانية واحدة داخل الحركة النفسية الخارجية الباهرة الالق والتنوع :

أنا لا أشيّع بالدموع صبابتي
لكن ألفّ جناحها بجناحي

غذيتها بدم الشباب وطيبه
وهرقت في لهواتها أفراحي
. . . . . .
. . . . . .
من كان من دنياه ينفض كفه
فانا على دنياي أقبض راحي
اني أفدّي كل شمس أصيله ،
حذر المغيب ، بألف شمس صباح

هذه اللهفة الصارخة ، في البيت الاخير ، نكاد نحسها تتفجر أذرعة من الشوق والرغاب . تتسارع الى عناق شمس الاصيل تشدها كيلا تغوص في لجة المغيب ، وكي تغير مسار حركتها العدمية الى مسار الوجود اللانهائي ..

وتتخذ الحركة الشعرية ، وهي تعبر عن شغفه بالجمال ، ظاهرة أبعد عمقا في الوجدان ، حين هو يتحدث عن ذكرى له غذاها بأكثر ما مضى من صبوته ، ثم جاء يغذيها بما بقي :

بأخي هوى متماسك في أضلعي
سمح ، على شيع الجمال مفرّق
شقت مرائره أسى وتأوها
ان فاته الحسن الذي لم يخلق

.. جاء يغذيها ـ بعد ـ بقلبه ، هذا الذي انعقد الاخاء بينه وبين الهوى على تماسك وسماحة وتوزع بين صنوف الجمال .. ولكن العجب في « أخي الهوى » هذا انه لا يرتوي من الحسن بما هو كائن ، فهو يتمزق مرارة وأسى من طموحه وتطلعه الى ما لم يخلق بعد من صنوف الحسن والجمال.. ليس هذا من باب الاغراب والاستحالة، أي ليس هو نوعا من الافتعال كما قد يدخل في تصور ناقد ما ، وانما هو تعبير ديناميكي عن شغف هذا القلب بالجمال الى أقصى حدود الشغف والوله .. انها صرخة « جوع » جمالي هائلة مثيرة تعبر عن نفسها بمحتوى النغم الداخلي لا بحركته الخارجية وحسب .. وقد تبلغ هذه الصرخة منتهى العنف حين تعبر عن هاجس جمالي آخر مع طرب الشراب :

يا ذابح العنقود خضّب كفه
بدمائه ، بوركت من سفاح !

ـ ٣ ـ

.. وقد يتحول الهاجس الجمالي عند « الاخطل الصغير » ، الى احساس عميق يقترب أحيانا من الاحساس المأساوي.. ذلك حين يصطدم وجدانه الشاعري باحدى المفارقات القائمة في علاقات الانسان بالطبيعة ، أو علاقاته بالارض والوطن والناس الآخرين ، فتتحرك الثورة الكامنة في أعماقه حينذاك ، ثم يتخذ الهاجس الجمالي هنا ظاهرة العاطفة **الوطنية** .. نجد مثل هذا الاحساس في مثل قصيدة « سلمى الكورانية » .. هذه القصيدة تتحدث عن ظاهرة الهجرة في لبنان وعن المهاجر اللبناني. انه موضوع اجتماعي بذاته ، ولكن « الاخطل الصغير » يتناول الموضوع انطلاقا من هاجسه الجمالي نفسه في قضية حب . والجمال والحب يجدان وحدتهما الكاملة دائما في شعره . فقصة الحب هنا تتطور الى مواجهة وجدانية وطنية معا تنشأ من تفريق الهجرة بين قلبين عاشقين . وفي المواجهة هذه يتحقق اصطدام الهاجس الجمالي باحدى المفارقات المحركة لثورة الشاعر . في هذه المفارقة حركة ديالكتيكية لها عمق انساني مأساوي ، ولكن يكمن في ثناياه حافز للرفض والتمرد . فحين تبلغ قصة الحب هنا ذروة التوتر يبرز وجه لبنان أيام الانتداب، وتبرز المفارقة الديالكتيكية المثيرة هكذا :

لبنان ، ما لفراخ النسر جائعة
والارض أرضك أعلاها وأدناها
أللغريب اختيال في مسارحها
وللقريب انزواء في زواياها
من ظن ان الرياحين التي سقيت
دموعنا الحمر قد ضنت بريّاها ؟
كأن ما غرس الآباء من ثمر
لغير أبنائهم قد طاب مجناها
وما بنوه على الاحقاب من أطمٍ
لغير أبنائهم قد حل سكناها
لا ، لم أجد لك في البلد من شبه
ولا لناسك بين الناس أشباها
لو مس غيرك هذا الذل من أسد
لعض جبهته سيف وحنّاها !..

في هذا الاطار نفسه من تحول الهاجس الجمالي ، عند « الاخطل الصغير » ، الى احساس وطني ، نشهد تحولات تتنوع أشكالها الفنية ، بقدر ما تتنوع حوافزها ومناسباتها الآنية التاريخية ، ولكن يبقى مصدر التحولات هذه واحدا، وجوهر الرابطة بينها واحدا ، هو الحساسية الشاعرية المرهفة الى حد القدرة على كشف العلاقات القائمة بين الاشياء المتفارقة بقدر ما هي قائمة بين الاشياء المتجانسة .. من هنا يحدث هذا التحول غالبا ـ ان لم نقل دائما ـ في شعر « الاخطل الصغير » من الهاجس الجمالي الى انفعالات انسانية أو وطنية أو قومية أمام التحديات والمفارقات في علاقات الانسان المختلفة ، ولا سيما علاقاته الاجتماعية . وقد يبلغ هذا التحول الانفعالي ـ كما ذكرنا من قبل ـ عمقا وجدانيا يصل به الى حدود الاحساس المأساوي . نجد الامثلة على ذلك في قصائد عدة كتبها الشاعر متأثرا بأحداث طارئة ، بعضها ذو طابع محلي لبناني ، وبعضها ذو طابع عربي شامل ، وآخر ذو طابع انساني عالمي ، وقد تجتمع في الحادث الواحد هذه السمات كلها ، كما في قصيدة « ١٩١٤ » .. وهي القصيدة التي أوحتها أحداث الحرب العالمية الاولى وفجائعها اللبنانية والعربية والعالمية .

ـ التتمة على الصفحة ٤٩ ـ

تتمة رحلة في شعر الاخطل

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٣ ـ

في قصيدة من وحي ليلة من ليالي الشاعر في احدى القرى اللبنانية ينطلق أولا مع الهاجس الجمالي في مجلس له بين نفر من أهل الادب والفن ، ثم في تمثال فني رآه هناك من صنعة نحات لبناني :

ودمية عندما صافحت صانعها
أكبرته عبقريّ الفن نحاتا
رمى بها في عباب الحب لؤلؤة
وناطها في جبين الحسن مشكاتا

وتأخذ الشاعر ، في هذا المناخ الجمالي ، نشوة شاعرية ما ان تبلغ مدى هناءتها في وجدانه حتى تتنبه حوافز التحول ، اذ تستيقظ علاقة المفارقة في وهج النشوة ، وينهض فجأة ديالكتيك التحدي هكذا :

سوانح من صفاء لا تلوح لنا
في حالكات الشق الا أويقاتا ..
نلقي على راحتيها أنفسا نهكت
فعل الفريق رأى في القرب مرساتا

ثم يصعد التحول من هذا الاحساس الذاتي المأساوي الى احساس اجتماعي وطني يحمل الحرارة المأساوية نفسها .. ذلك اذ أحدثت حركة التحدي في الهاجس الشاعري ما تحدثه الحصاة تلقى في صفحة الماء .. فاذا بدائرة المفارقات التي تتحدى نشوة الشاعر تعقبها دائرة أخرى من المفارقات أوسع منها ، فاذا بالتحول ينتقل من صراع الهاجس الجمالي مع مفارقات الذات الى الصراع مع المفارقات في نطاق المجتمع .. وكان المجتمع هنا لبنان نفسه أيام الانتداب الفرنسي :

لبنان ، يا جنة الارواح ، ما فعلتْ
بك الليالي .. فعاد العرس مأساتا
قد كبَّروك لامر صفروك به ،
قد فخموا الاسم ، لكن حقروا الذاتا
في كل طرفة عين أنظم جدد
من سوء حظك قد ظنوك ملهاتا
كأنما كنت لوحا في مكاتبهم
تمضي الاكف به محوا واثباتا

فتيان لبنان ، هبوا من رقادكم
سيَّان من نام عن حق ومن ماتا

***

على هذا النحو نجد حساسية الشاعر الجمالية في مواقفه من مختلف الاحداث والمناسبات في النطاق العربي الشامل . اننا نجده في ذروات من الانفعالات الشاعرية يتحول به الانفعال الى مواقف عربية تمجد علاقات الاخوة بين لبنان وأشقائه في العالم العربي ، وتمجد نضال العرب في معركة الحرية ، وفي معركة فلسطين بالاخص ، ونجد المفارقات في هذا المجال كذلك تحفز هاجسه الجمالي للتحول من الانفعالات الذاتية الى الانفعالات القومية .

● في غمرة الانفعال الحزين ، اذ يرثي شوقي ، واذ الاحساس الشاعري يتصاعد مع الرؤى الجمالية المستثارة بنوع من الاندهاش للحادث ، ينطلق الهاجس الفني ، فجأة ، من حدود الرثاء في نطاقه الفردي الى الحدود الوسيعة التي تشتمل لبنان كله ومصر كلها في اطار واحد من الاخوة بينهما :

لبنان ، يا مصر ، مصرٌ في مطامحه
ـ كما علمت ـ ومصرٌ في مفاخره
هل كان قلبك الا في جوانحه
أو كان دمعك الا في محاجره
أو كان منبت مصر غير منبته
أو كان شاعر مصر غير شاعره ؟

● واذ هو يرثي سعد زغلول ، وهاجسه الفني ينشىء دنيا من الخيالات والصور المجنحة بألوان أسطورية وملحمية ، اذا به ينفلت من دنياه هذه الى دنيا الواقع بكل واقعيته ، ليدخل قلب المعركة السياسية الوطنية التي كانت تحياها مصر يومذاك ، واذا به وجها لوجه مع رجال مصر الذين كانت تشغلهم أحداث المعركة في هذا الصف منها أو ذاك :

اني أخاف عليكم في تحزبكم
أن تنصروا الخصم ، وهو الخصم والحكم
تخاصمون على ضعف ، وخصمكم
هو القوي ، عليكم ليس يختصم
توحدُوا باسم مصر في تجهمها
وطالعوا ثغر مصر كيف يبتسم
سعد أرادكم حلفا ـ فلا قسمت
أجزاؤكم ـ حب مصر ليس ينقسم

● وفي رثاء فيصل الاول بينا يجهد الشاعر في ابتداع « الحالات » الشعرية الملائمة للموقف ولخصائص الشخصية المرتبطة به ، اذا بحساسية الشاعر تستشف الابعاد الاخرى للموقف ، وهي الابعاد السياسية التي تمتد اليها ظلال الشخصية هذه ، فيأخذ التحول الشعري هنا مجرى آخر نحو تلك الابعاد ذاتها .. فنرى الشاعر عند هذا المجرى الجديد ، يذكر ما كان لفيصل الاول من علاقة بالحركة العربية الاستقلالية ، وما كان لهذه العلاقة من ارتباط بوعود « الحلفاء » الغربيين وعهودهم للعرب عند اندلاع الحرب العالمية الاولى ، ثم ما اقترفه هؤلاء « الحلفاء » من نكث لهاتيك الوعود والعهود .. وفي هذا المسار يتحول الاحساس الشاعري من نطاق الرثاء في حدوده التقليدية الى نطاق الموقف القومي ، فنلحظ منذ يأخذ هذا التحول مداره الاوسع ان حرارة الواقع

المأساوي قد أكسبت الموقف الشعري الجديد نبضا من الحيـــوية والصدق لم نكن نحسه في المدار الاول مـــن القصيـــدة :

قل لتلك العهود في رهج الحرب
وفي سكرة القنا والفلاصم
قد لمحناك في عيون الثعالي
ولمسناك في جلود الاراقم
حدّثونا عن الحقوق ، فلما
كبر النصر ، أعوزتنا التراجم
نفختنا بها الحروب سلاما
ورمانا بها السلام أداهم
قل ــ وقيت العثار ــ في ندوة القوم :
متى أصبح « الحليف » مخاصم ؟..
أين ذاك « الهيام » في أول « الحب »
وتلك الموشحات النواعم ؟..
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ان تحت الصدور جذوة موتور
وخلف الحدود زأرة ناقم ...

***

.. وفي الاطار نفسه كـــذلك ، اطار التحول في الهاجس الجمالي ، عند « الاخطل الصغير » ، من دائرة الاحساس الذاتي الى دائـــرة الاحساس العام الاشمل ، نلحظ في شعره تحولات من نوع آخر ، هو النظر الـــى قضايا الانسان ذات المنشأ الاجتماعي ، أي تلـــك القضايا التي يعانيها الناس في المجتمعات الطبقية ، أو تلك التي تعاني منها البشرية كافة أزمات القلق على مصير الحيـــاة نفسها كمسألة الحروب العالمية .

وقد حان لنا هنا أن نوضح مفهوم الهاجس الجمالي الذي تكرر ذكره في « رحلتنا » هذه .. اننا نقصد بـــه غير معناه الساذج المبتذل .. فليس القصد به معنـــى الجمال المناقض للقبح بمفهومه البسيط ، بل معناه الفني الذي ينبع من الرؤية الشعرية للاشياء ولعلاقات الانسان مع الطبيعة والحياة والناس الآخرين ، وللقيم الانسانية المستمدة من هذه العلاقات . فكل رؤية فنية ابداعيـــة الى الظاهرات الكونية أو الاجتماعية أو الى دخائل النفس الانسانية ، وكل كشف للابعاد غير المنظورة بالنظر العادي، القائمة وراء تلك الظاهرات ــ كل رؤية من هذا النوع ، وكل كشف تحققه هذه الرؤية ، بواسطة الشكل والمضمون في وحدتهما الجوهرية ، يشكل العنصر الجمالي فـــي الفن ، أي الحقيقة الفنية . ان هذا العنصر هو ما سميناه في هذه الرحـــلة بـ « الهاجس الجمالي » لانه الدافـــع الداخلي المشع عند الشاعر والفنان .

اذا رجعنا ــ بعد ــ الى حيث وصلنا من «الرحلة» في شعر « الاخطل الصغير » سنرى أشكالا جديدة من تحولات الهاجس الفني .. نعني تحول هذا الهاجس من الرؤيا ذات المضمون الفنائي الصرف الـــى رؤيا في قلب الظاهرات الاجتماعية ، أي قضايا الانسان في علاقاتـــه الطبقية ، أو في أزماته المصيرية الكبرى :

● ففي مجال العلاقات بين الطبقات الاجتماعية ، في ظلال الانظمة الرأسمالية بالطبع ، تمتد رؤيته الفنية الى ما وراء ظاهرة الفقر والغنى وسائر ظاهرات التمايز الطبقي ، فاذا برؤيته هذه تكتشف ، بلمح مـــن الهاجس الفني النفاذ ، بعدا واقعيا مـــن أبعاد تلك الظاهرات ، أو تكتشف ــ اذا شئنا التعبير بلغة العلم ــ واحدا مـــن القوانين الاساسية التي تنشأ عنها تلك الظاهرات :

أيها الاغنياء ! ان غناكم
شيدته سواعد الفقراء ..
القصور التي تقيمون فيها
من بناها لكم سوى الفقراء ؟
والطعام الذي تلذّون .. من هم
صانعوه سوى الفقراء ؟
والرياحين في الجنائن .. من هم
غارسوها لكم سوى الفقراء ؟
والحليب الذي رضعتم صغارا
كان من صدر معظم الفقراء
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لا تقولوا : وساوس من فقير
دوخته طوارق الارزاء
ان للفقر ثورة لو علمتم
تسبح الناس دونها في الدماء ..

● وعند زوال ظل السلطان عبد الحميد العثماني في العقد الاول من هذا القـــرن ، نظر الشاعر الى قصر « يلدز » وقد سقط الظل الرهيب عنه يومذاك ، فامتد به النظر الشاعري الى ما وراء هذا الحادث ــ الظاهرة من دلالات التحول التاريخي في ظهور قوة الشعوب لتحرير أعناقها من أنيار الاستبداد والاضطهـــاد والاستعباد ، وظهور ارادتها في ضم وحدة صفوفها مع وحدة مصيرها :

زال عهد السجود يا أمم الارض
فهذا عهد السلام الوطيد
لا بلفنا ذرى الحضارة ان لم
يمح عصر الاخاء عصر العبيد

● وفي حين كان « الدستور » مطلبا تنادي بـــه جماهيرنا العربية لتحقيق مرحلتها الديمقراطية ، وجدت هذه الجماهير مطلبها ذاك ينتفض في هاجس بشـــارة الخوري انتفاضة تدعـــو الى الثورة ، هاتفة بأن «الدستور» لا يهبط على الشعوب هبوط الوحي من غير كفاح يتفجر من أعماقها كالاعاصير أو البراكين :

ان الدساتير لا تعطي أعنتها

الا الاعاصير من جن ومن بشر
من هابط كقضاء الله مكتسح
أو صاعد كفم البركان منفجر

● وفي الحرب العالمية الاولى رأى الشاعر فجائعها الانسانية في وطنه ذاته ، من جوع وعري ومرض في أوساط الفقراء ، ومن احتكار وجشع واستغلال رهيب في أوساط الاغنياء ، ومن تعسف وانهيار للقيم المثلى في أوساط الحكام ، فاهتاج هاجسه الجمالي غضبا وحقدا شريفا ، وانبرى يتفجر قصائد من لهب ينصب نقمة على التمايز الطبقي ، وعلى عسف الطبقات الحاكمة والمستغلة، وعلى الحرب ومشعلي نارها الشريرة ، وعلى وحشية المنتفعين بها حتى انتهاك الحرمات الانسانية .. اننا نحس الآن ، ونحن نقرأ هذه القصائد الفاضبة ، ان الشاعر يعاني فيها أزمة نفسية وعقلية أسلمته حينذاك الى حيرة مرهقة في تفسير المحنة البشرية تلك ، حتى لنراه يلجأ في حيرته الى مثل هذه المناجاة :

ربّ ، لو شئت لما سالت دما
أمرك الامر .. فمن ذا ينكر ؟
ولما يتمّ من قد يتما
ولما استل السلاح العسكر
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
.. واخلق الانسان خلقا راقيا
واقتل البغض به والكبرياء
واجعل الحب الها ثانيا
واسجن المال ولا تبق الرياء
وليكن كل **امتياز** لاغيا
يخرج الناس **على حد سواء**
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
من ترى يشرح لي ذنب الفقير
أو ــ ترى ــ يظهر لي فضل الغني
يرثان البؤس ، والعيش النضير
ويقيمان معا في الكفن ؟

ــ ٤ ــ

السمة الفنائية ، بمفهومها المدرسي وبمفهومها الاعم، هي السمة الشائعة في شعر « الاخطل الصغير » .. ولكن غنائيته هذه لم تستسلم ــ الا قليلا ــ الى الخطابية، أو الى الخواء الفكري . ولقد استطاع أن يضفي على خطابيته حيث وجدت ، أو على الخواء الفكري حيث وجد في شعره ، تلك الخاصة الجمالية المستقلة التي اجتمعت لها مجموعة من العناصر أبعدت عن شعره ، في الغالب ، تلك العيوب التي تشوب غنائية الشعر العربي في الجيلين السابقين بالخصوص .. من هذه العناصر : مزية الصدق، ومزية الصفاء النفسي والتعبيري ، ومزية الجدة والطرافة لا في النغمة واللفظة والعبارة فحسب، بل في الصورة الشعرية كذلك ، وفي طريقة التصوير الايحائي للموضوع الشعري. ان عنصر الجدة والطرافة هذا ، بجملة مقوماته ، كثيرا ما ينقذ شعره من النثرية ، أو التقريرية ، حين ينزلق اليهما .. فهناك ، مثلا ، ألوان من الغزل عنده لا تخرج بمضمونها عن الغزل التقليدي المكرور في شعرنا، ولكن خاصة « الاخطل الصغير » انه يخلع على مثل هذا الغزل طرافة في التصور وفي العبارة تهيىء له مناخا شعريا خاصا يخفي وجهه التقليدي حتى ليوحي لنا بأنه جديد .. نذكر من ذلك أبياته المشهورة المفتاة التي مطلعها :

بلّغوها اذا أتيتم حماها
انني متّ في الغرام فداها

فهنا لا تقبض اليد على أمر جديد اطلاقا من حيث المضمون العام ، ولكن طريقته في وضع الحقيقة الشعرية في اطار يوم القيامة حيث يتصور ان النعيم يكون جزاءه في جهاده وتكون النار جزاء الحبيبة ، وحيث يتصور مناجاة مع الله متشفعا اليه ، مالئا السماء شكواه ، شاغلا الابرار عن تقواهم حتى يمشي الحب في الملائك ويخاف جبريل عاقبة ذلك ، ثم ضارعا الى الله محتجا اليه :

قلت : يا رب ، أي ذنب جنته ،
أي ذنب ؟ لقد ظلمت صباها ..
أنت ذوّبت في محاجرها السحر
ورصعت باللآلىء فاها
أنت عسلت ثغرها .. فقلوب الناس
نحل أكمامها شفتاها
أنت من لحظها شهرت حساما
فبراء من الدماء يداها ..

نقول ان وضعه الحقيقة الشعرية في هذا الاطار الطريف قد أنقذ الصورة من لونها القديم الحائل .. وقد رثا « الاخطل الصغير » صديقه حافظ ابراهيم ، فراح يمعن في توليد الصور الشعرية ، دون أن يخرج أيضا عن المضامين التقليدية في الرثاء ، ولكنه أوتي القدرة على التفرد بسكب هذه المضامين في ألوان من الطرافة المحببة حتى تبدو ابتكارا .. فاذا بنا نحظى في هذه القصيدة بكثير من الصور الممتعة التي تشبه هذه الصورة :

أنت والنيل ضفتان لمصر
تنبتان الاذواق والارزاقا

هذه الخاصة في تلوين الصور الشعرية بالطرافة تكاد تكون أبرز خصائص شعره ، وكثيرا ما يجلوها في اطار من الحوار القصصي على غرار قصيدته المشهورة

« هند وأمها » :

أتت هند تشكو الى أمها
فسبحان من جمع النيّرين
فقالت لها : ان هذا الضحى
أتاني ، وقبّلني قبلتين
وفرّ ، فلما رآني الدجى
حباني من شعره خصلتين ... الخ .

ولكن تبقى حقيقة لا بد من جلائها في الحديث عن غزل بشارة الخوري . فليست الطرافة بذاتها كافية لانارة السمات المميزة لهذا الغزل . ذلك بأن من مميزاته كذلك انه ليس غزلا وصفيا تصويريا في الغالب ، بل يغلب فيه التحول الى حركة وجدانية تتعمق الحس الجمالي في الداخل ، وهذا التحول يجعل من الوصف الخارجي ظاهرة حركية تشارك مشاركة أساسية في التعبير عن امتلاء الوجدان بنبضات الشاعر الجمالية . وهذا ما أشرت اليه حين قلت ، من قبل ، ان الجمال والحب يجدان وحدتهما الكاملة دائما في شعر « الاخطل الصغير » .. فماذا يعني أن يقول الشاعر ، مثلا ، وهو يتغزل :

ايه ريحانة الرياحين فيضي
مرحا ، واملأي الجوانح وجدا
امسحي جبهة الظلام تفضْ نورا
ومرّي على الصخور فتندى

هل يعني مثل هذا التصور للجمال ، سوى الشعور الداخلي بالاندهاش من روعة الجمال المعين ؟

وماذا يعني مثل هذا « الوصف » لصوت مطرب :

يا غابة الصوت اللهيف كأنه
تحت الظلام أشعة تتكلم
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ثملت به الازهار وهي أجنّة
وتشوفت ، فانشق عنها البرعم

هل هذا وصف وكفى ؟ أم هو الدهشة الوجدانية أمام « غابة » من ينابيع النغم تندفق في مسمع الشاعر، فتنسكب في أوصاله ارتعاشا كانسكاب الشعاع المنعش ، حتى يتصور هذا النغم يفعل فعل الشمس بالزهرة : تدركها في البرعم جنينا ، فتتفتح زهرة كاملة من اثر الشعاع ؟ أحسب ان الشاعر هنا لا يصف الصوت نفسه بقدر ما « يصف » اثر الصوت في وجدانه .. وكلمتا : « الغابة » و « اللهيف » في هذه الصورة ، لا تعنيان دلالتهما الحرفية ، بل دلالتهما في تصور الشاعر الخاص ..

وفي هذا المجال لا بد أن تحضرنا قصيدة « عمر ونعم » .. فقد أعاد الى عصرنا صورة من ابن أبي ربيعة في رائيته الطريفة ، وجلا منها مشاهد غزلية بطرافة جديدة . هي طرافة « الاخطل الصغير » بخصوصها وخصائصها ، وهي ـ أي قصيدة « الاخطل الصغير » ـ تضيف الى متعة الطرافة المتجددة اضاءات فنية هامسة ومقنعة في آن ..

ـ ٥ ـ

تستوقفنا في هذه « الرحلة » مشاهد ملحمية . دون أن تغرينا بالقول ان شاعرنا قد جمع بين الطرفين المتباعدين : الغنائية والملحمية .. لا ، فانهما طرفان متباعدان بالفعل ، وليس لشاعر أن يكون غنائيا وملحميا معا ، ولكن قد يلتقيان التقاء عفويا عابرا ثم يفترقان . فالشاعر الغنائي لا يقوى على احتمال الابعاد الموضوعية الشاسعة للملحمة .. والشاعر الملحمي لا يقوى على احتمال الانفعالات الذاتية الغنائية القصيرة الانفاس .. أما « الاخطل الصغير » فشاعر غنائي وحسب . واننا لنرتكب نوعا من الاعتباطية والتمحل اذا نحن أضفنا الى طبيعته طبيعة أخرى ليست منه ولا هو منها .. غير ان ذلك لا ينفي أن يمتد نفسه ، في بعض حالاته الشعرية الغنائية ذاتها ، الى مدى يتيح له أن يجول جولة ملحمية موفقة ، ولكن بخطى موقّعة توقيعا غنائيا يعوقه عن الوثبات المغامرة ، بل يرده سريعا الى اصالته الغنائية.. وقد تكون جولته الملحمية في ذكرى المتنبي هي الجولة الوحيدة التي يخطو فيها خطوات تقرب من المغامرات الملحمية .. ولعل رفقة المتنبي ، في هذه القصيدة العامرة ، قد وضعت « الاخطل الصغير » في جو خاص أحمى ذراعيه لخوض المغامرة بعض وقت .. أما جولته الاخرى في ذكرى الفردوسي فكانت أقصر من تلك في شوطها الملحمي ، ولكنها جولة ممتعة بما امتزج فيها من عبق الشعر وروعة الموكب الكسروي وجلال الفتح الاسلامي العربي .. وفي رثائه للزهاوي نفحات ملحمية ـ غنائية مزدوجة ، ولا نقول جولات ملحمية . والواقع ان هذه المرثاة مع كونها مفعمة بحرارة الصدق والانفعال العاطفي ، هي كذلك أشبه برحلة للفكر والشعر معا رفيقين حميمين يمضيان يدا بيد على وئام وانسجام يطوفان في دنيوات شتى من تاريخ الحضارة العربية والادب العربي ، ومن دنيا الصحراء العربية ، ثم دنيا الجحيم حيث يلتقيان « دانتي » و « المعري » يسألانهما :

أحقيقة عرفا لظى ؟
أم وصف مبتدع نجيب ..

هو تطواف سريع خفيف المشقة ، ولكنه مثقل بزادين دسمين لذيذين : زاد المعرفة ، وزاد الفن المشبع بالبهجة والنقاء . هو ذا رثاء يتميز بالتفرد في نهجه وبساطته واستيعابه خصائص الموضوع بكاملها من غير تهويل ولا افتعال ، تمشي في نواحيه لمحات ملحمية ولمعات غنائية منسكب بعضها في بعض كانسكاب الماء العذب بالخمرة المروّقة ..

- ٦ -

في شعر « الاخطل الصغير » ظاهرة أخرى تسري في لفظاته وصوره ومعانيه ودلالاته ، فتزيد الالفةالحميمة بينها جميعا الفة أسمى وأوثق .. هي ظاهرة الطيبة خالصة من الدخائل السود ، ومن العقد النفسية . ولم يكن مبالغا ولا مدعيا حين وصف هو هذه الطيبة في مهجته :

مهجة كالرياض يفمرها النور
ويرتد عن سماها الظلام

ومن هذا المصدر الروحي ينبع الابتسام دائما في شعره .. ينبع حتى من خلل الدمع ، بل نادرا ما نجد دمعة في هذا الشعر لا تضيئها ابتسامة ، ونادرا ما نجد ابتسامة فيه لا تنبثق من دمعة :

في دمع بسمتها وفي صلواتها
نعمى تطل على العزاء وتشرق

***

قالوا الربيع ، فقلت ما أنكرته
رشف الدموع وردّهن تبسما

***

يغسل الانفس الجريحة بالدمع
فيكسو تلك الجراح افترارا

***

هذا الذي لمس الآلام فابتسمت
جراحها ، ثم ذابت في محاجره

***

صمت يفيض بيانا
ودمعة تتبسم

***

كم من زغاريد عرس
نزعت من فم مأتم
الخ .. الخ ..

يصعب التسليم بأن ظاهرة هذا الاقتران دائما بين الدمع والابتسام ، أو بين الحزن والفرح ، أو بين المأتم والعرس، في شعر « الاخطل الصغير » ، ليست اكثر من ظاهرة لفظية « بديعية » من فصيلة « الطباق » التزييني .. يصعب التسليم بهذا القول ، لان نقاوة شعره وصفاءه واصالته ، لا تسمح بتكلف مثل هذا الافتعال الشكلي المتكرر دون خلفية نفسية ثابتة .. ان هذه الظاهرة ـ في استنتاجي ـ هي ظاهرة انعكاس فني عفوي عن مزاج الشاعر ، أعني تلك الطيبة التي يبدو انها لم تقتصر على أن تحوّل الظلمة في نفسه الى ضياء دائما، بل لعلها تحولت عنده كذلك الى لون من المزاج الفلسفي المتفائل ، سواء بعفوية خالصة أم بوعي وتأمل ..

- ٧ -

وفي هذه المرحلة من رحلتنا في شعر « الاخطل الصغير » تتكشف لنا ، أخيرا ، ظاهرة تطور في بناء القصيدة عنده بالنسبة لجيله .. وقد يكون هذا الجانب منه عسير الرؤية لنا الآن في منظار المقاييس البنائية المعاصرة ، ولكن من اليسير جدا رؤيته اذا نظرنا الى الامر في اطاره الزمني الخاص . ففي هذا الاطار نستطيع أن نضع البناء الشعري عند « الاخطل الصغير » في مكان يشير الى الارهاص بالتطور البنائي المعاصر نفسه . فان شعره من هذهالجهة يمكن حسبانه حلقة اتصال بين عهدين لبناء القصيدة العربية : عهد كان فيه البيت بذاته وبمفرده هو الوحدة البنائية الاساسية في القصيدة ، وعهد أصبحت فيه القصيدة بمجملها، ككل، تعتبر بناء واحدا متكاملا لا يؤدي فيه البيت ، أو لا تؤدي فيه التفعيلات المتلاحقه ، سوى دور الجزء في بناء الكل ، على أن يكون كل جزء فيمكانه الخاص به من هذا البناء ، بحيث لو أخرج من هذا المكان الى مكان آخر في القصيدة لحدث الخلل في بناء القصيدة بكامله ، ولتغير مدلول الفكرة نفسها ، أو مضمون التجربة ، أو نوع العلاقة بين ذات الشاعر والموضوع الشعري ، أو النسيج الفني بكامل علاقاته الجمالية ..

ونحن ، في ضوء هذا المفهوم البنائي المعاصر ، لا نستطيع القول بأن شعر « الاخطل الصغير » قد بلغ هذه المرحلة من التطور البنائي . وانما الذي يمكن قوله ان هذا الشعر قد خطا خطوة تطورية ملحوظة في هذا المجال ، بمعنى ان قصيدة « الاخطل الصغير » جاءت لتعبر عن فكرة واحدة تقريبا ، أو تجربة واحدة ، أو لتدور على موضوع واحد ، ولكن بقيت فيها بقية من العاهة البنائية القديمة في الشعر العربي ، بحيث لو غيرنا وضع هذا البيت وذاك ، أو وضع هذا المقطع وذاك ، في هيكل القصيدة الواحدة ، لما اختلف الامر كثيرا في تركيب الهيكل الكلي للقصيدة . على انالخطوة التي أحدثتها قصيدة « الاخطل الصغير » كانت تجديدا واضحا يستحق الدرس الجدي .

- ٨ -

وختاما لرحلتنا هذه ، لا أكتم جامعي « شعر الاخطل الصغير » وناشريه بصورته التي ظهرت عام الاحتفال لتكريمه على النطاق العربي منذ سنوات ـ لا أكتمهم عتبا يدنو من الملامة على كونهم أغفلوا عند جمعه ونشره ذكر المناسبات والاحداث والتواريخ التي تتصل بهذا الشعر ويتصل بها ، ويستمد منها مناخه الوجداني ودلالاته الشعرية ، كما أغفلوا ذكر الاشخاص ذوي العلاقة بهذا المناخ وهذه الدلالات . لا ندري كيف ارتضوا هذا الاغفال وهم يعلمون ـ دون شك ـ ان ذلك سيحرم الدارسين والباحثين والنقاد في الاجيال اللاحقة رؤية الاطر التاريخية والمناخات الانسانية الخاصة التي تمدهم بالعون على استكشاف الابعاد الخفية الجوهرية التي يترامى اليها شعر « الاخطل الصغير » ؟

اننا نرجو أن يستدرك هذا الامر في طبعة جديدة أكثر شمولا واستيعابا لشعر شاعرنا الكبير الراحل .

حسين مروه